دار القاسم

التوبة

عبد الملك القاسم

الرياض ص.ب ٦٣٧٣ الرمز ١١٤٤٢ هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ ف: ٤٠٣٣١٥٠
جدة ت: ٦٠٢٠٠٠٠ ف: ٦٣٣٣١٩١ بريدة ت: ٣٢٦٢٨٨٨ ف: ٣٦٩٢٨٨٨
الدمام ت: ٨٤٣١٠٠٠ ف: ٨٤١٣٠١١ خميس مشيط ت: ٢٢٢٢٢٦١ ف: ٢٢٢٣٠٥٠
www.dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ من أعظم نعم الله ـ عز وجل ـ أن فتح باب التوبة وجعله فجراً تبدأ معه رحلة العودة بقلوب منكسرة، ودموع منسكبة، وجباه خاضعة.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر: ٤٩].

ويقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ويقول تعالى ـ حاثّاً على التوبة والرجوع والأوبة ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وصح عنه ﷺ كما روى ذلك الإمام مسلم أنه قال: «إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوبَ مسيءُ النهار، ويبسطُ يده بالنهار ليتوبَ مسيءُ الليل حتى تطلعُ الشمسُ من مغربها» [رواه مسلم].

وهذا نبيُّ الرحمة وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله فإنِّي أتوب في اليوم إليه مائة مرة» [رواه مسلم].

وانظر وتأمل أخي المسلم في فضل الله ـ عز وجل ـ على التائب العائد، فقد قال رسول الله ﷺ: «التائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له» [رواه ابن ماجه].

أخي المسلم: إن رمضان فرصة عظيمة للتوبة لمن صدق مع الله ـ عز وجل ـ ولا تكن أيها المفرط ممن رغم أنفه وخسر الفرصة العظيمة، فعنه ﷺ أنه قال: «رغم أنف من أدرك رمضان فلم يغفر له» [رواه الترمذي].

ولا يأخذك الهوى ومُلهياتُ النفس فإن الرسول ﷺ يقول: «كلُّ أمتي يدخلون الجنَّة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخلَ الجنةَ، ومن عصاني فقد أبى» [رواه البخاري].

وهذا الحديث بشارة لجميع المسلمين بالجنة، إلا صنفاً منهم

لا يريدون دخولها، لا زهداً فيها، ولكن جهلاً بالطريق الموصلة إليها، وتراخياً وتكاسلاً عن دخولها، وتفضيلاً لهذه المتع الدنيوية الزائلة على تلك النعم الخالدة في الجنة.

أخي المسلم: جدَّ في التوبة وسارع إليها فليس للعبد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، فسارع إلى التوبة، وهُبَّ من الغفلة، واعلم أن خير أيامك العودة إلى الله ـ عز وجل ـ فاصدق في ذلك، وليَهْنكَ حديث الرسول ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» [رواه مسلم].

أخي الصائم: قال يحيى بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ: «من أعظم الاغترار عندي: التَّمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقّع القرب من الله بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله ـ عز وجل ـ مع الإفراط».

ومن أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات.

وقال الحسن البصري: «إنَّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي ـ وكذب ـ لو أحسن الظن لأحسن العمل».

وقال ـ رحمه الله ـ: «إن المؤمن قوَّام على نفسه يحاسب نفسه لله ـ عز وجل ـ وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات، هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا! والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله، إن المؤمنين قومٌ

أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ـ عز وجل ـ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه».

عباد الله: إن جهاد النفس: جهاد طويل، وطريق محفوف بالمكاره، مذاقه مُرٌّ وملمسه خشن، فعليك بالسير في ركاب التائبين حتى تَحُطَّ رحالك في جنات عدن.

قال حاتم الأصم: «من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغترٌّ لا يأمن الشقاء».

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان.

الثاني: حين خلق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك: بالشقاوة والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء.

الثالث: ذكر هول المطالع، فلا يدري أيبشر برضا الله أم بسخطه.

الرابع: يوم يصدر الناس أشتاتاً، فلا يدري أي الطريقين يسلك به.

وقال الحسن: «ابنَ آدم.. إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك، وتُبعث وحدك، وتُحاسب وحدك.. فينبغي لكل ذي لُبٍّ وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله ـ تعالى ـ قرابة ولا رحم، وإنما هو قائمٌ بالقسط، حاكم بالعدل، وإن كان حلمه يَسَعُ الذنوبَ، إلا أنه إذا شاء عفا، فعفا كلَّ كثيف من الذنوب، وإن شاء أخذ وأخذ باليسير، فالحذر الحذر..».

أخي المسلم: كلنا أصحاب ذنوب وخطايا، وليس منَّا من هو معصوم عن الزلل والخطأ، ولكن خيرنا من يسارع إلى التوبة ويبادر إلى العودة: تحثه الخطى، وتُسرع به الدمعة، ويعينهُ أهلُ الخير رفقاءُ الدنيا والآخرة، فإنَّ من واجب الأخوة في الله عدم ترك العاصي يستمر في معصيته بل يحاط بإخوانه، ويذكر ويُنبه، ولا يهمل ويترك فيَضل ويشقى.

أرأيت إن نزل به مرض أو شأن من أمور الدنيا كيف تقف معه وتعينه؟ فالآخرة أولى وأبقى.

ولو تفقَّد كلُّ مسلم أخاه وقريبه وجاره، لصلحت الحال واستقامت الأمور، خاصة في هذا الشهر العظيم الذي صفت فيه القلوب واطمأنت فيه النفوس، وسارع المسلمون إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، فإنها فرصة عظيمة لنصح المذنب، وتنبيه الغافل، وتعليم الجاهل. والحال ذكرها ابن القيم بقوله: رأيت الخلقَ كلَّهم في صف محاربة، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى ويضربونهم بأسياف اللذة، فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء، وأما المتقون ـ جعلنا الله منهم ـ ففي جهد جهيد من المجاهدة، فلابد مع طول الوقوف في المحاربة من جراح، منهم يجرحون ويداوون، إلا أنهم من القتل محفوظون، بل إن الجراحة في الوجه شَين باق، فليحذر ذلك المجاهدون.

أخي الصائم: بادرْ إلى التوبة ودع عنك لعل وسوف، ولا يغرَّك طول الأمل فإن الموت يأتي فجأة! والموت يطلبك في كل لحظة!

مَضَى أمسُك الأدنى شَهيداً معدَّلاً
ويومُك هذا بالفعل شَهيدُ
فَإن تكُ بالأمس اقترفْتَ إساءةً
فَثَنِّ بإحسان وأنتَ حميدُ
ولا ترجُ فعلَ الخير منك إلى غد
لعلَّ غداً يأتي وأنتَ فقيدُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الذي يضرُّ صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة».

ولا تظن أيها المسلم الصائم أنَّ التوبة في ترك المنكرات والمعاصي فحسب، بل احرص على التوبة من ترك النوافل والمداومة على الخير، فتبْ عن تفريطك في السنن الرواتب، وتب عن إضاعتك للتراويح والقيام، وتب من بخلك وشحك، وتب إلى الله من غفلتك وإضاعة وقتك الثمين.

واعلم أن المؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع بعشرة أسباب:

الأول: أن يتوب توبة نصوحاً ليتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثاني: أن يستغفر الله، فيغفر الله ـ تعالى ـ له.

الثالث: أن يعمل حسنات تمحوها، لقوله تعالى ـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

الرابع: أن يدعوا له إخوانه المؤمنون، ويشفعوا له حيّاً وميتاً.

الخامس: أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

السادس: أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ.

السابع: أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب، في نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحبُّ ونحو ذلك.

الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة، وهي عصر القبر، فيُكفَّر بها عنه.

التاسع: أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

العاشر: أن يرحمه أرحمُ الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة، فلا يلومنّ إلا نفسه، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» [رواه مسلم].

وشروط التوبة أربعة:

١ ـ الإقلاعُ عن الذنب.

٢ ـ الندم على ما فات.

٣ ـ العزم على أن لا يعود.

٤ ـ إرجاعُ الحقوق إلى أهلها من مال أو غيره.

وحالنا في هذه الدنيا بين مسوِّف ومفرط، حتى يفاجئنا الموت على حين غفلة، وتأمل في حال البعض ممن يؤثر الظل على الشمس، ثم لا يؤثر الجنة على النار.

جعلني الله وإياكم ممن إذا زلَّ ثاب وتاب، ورزقنا توبة نصوحاً قبل الموت، وتقبل منا صيامنا وقيامنا، وتجاوز عن تقصيرنا وآثامنا، وغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

[من كتاب ٤٠ درساً لمن أدرك رمضان]

دار القاسم تقدم برنامج القراءة بالمراسلة يصلك شهرياً (٤ كتيب ـ ٤ كتيبات جيب ـ ٤ مطويات) باشتراك سنوي (١٧٥) ريال.

مطابع دار القاسم ت: ٢٧٠٩٥٥٥ ف: ٢٧٠٧٧٠٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة